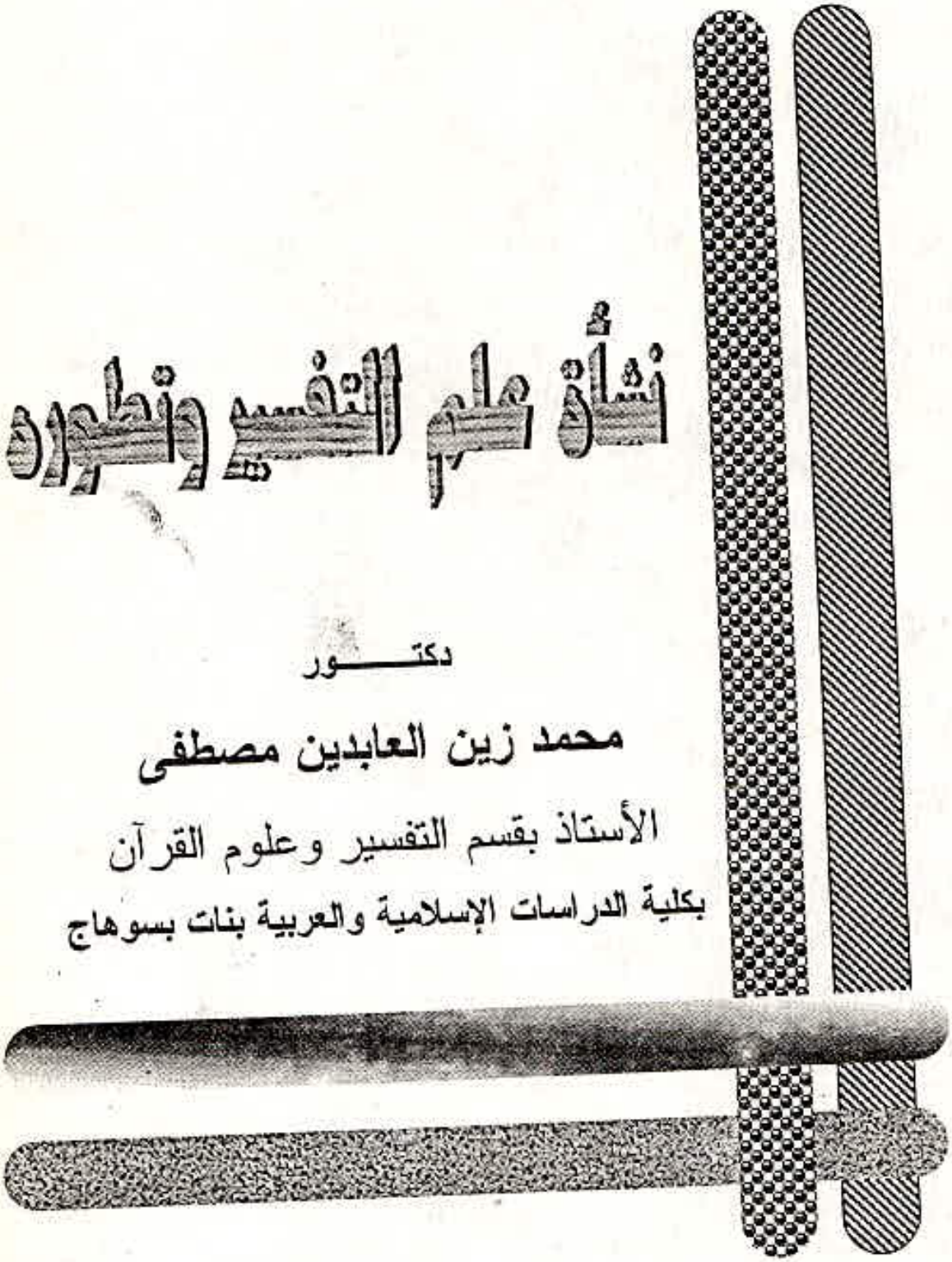

نشأة علم التفسير وتطوره

دكتـــــور

محمد زين العابدين مصطفى

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بسوهاج

نشأة علم التفسير و تطوره

المقـــدمة

الحمد لله علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ، وأشـهد إلا إله إلا الله المحمود بكل لسان وأصلى وأسلم علـــى سـيدنا محمد المبعوث للثقلين الإنس والجان .

أما بعد

فهذا البحث حول نشأة علم التفســير وتطـوره وسـوف يشمل بمشيئة الله على ما يأتى :-

أ- تمهيد

ب- تعريف كل من التفسير والتأويل لغة واصطلاحـاً وبيان العلاقة بينهما.

ج- فضل التفسير والحاجة إليه

د- مراحل التفسير وأطواره وقسمتها إلى أربعة مراحل :

١- التفسير على عهد رسول الله ﷺ

٢-التفسير على عهد الصحابة رضوان الله عليهم .

٣- التفسير فى عهد التابعين وآراء العلماء فيه .

٤-التفسير فى عصور التدوين .

هـ- طبقات المفسرين .

و- تقسيم التفسير إلى التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

ز- التفسير بالمأثور وحكمته وسبب الاختلاف فيه .

ح- التفسير بالرأي الجائز منه وغير الجائز وبينت الأمور التى يجب على المفسر مراعاتها فى تفسيره والأمور التى يجب البعد عنها والأمور التى يجب أن يتسلح بها المفسر الرأى .

ط- اختلاف العلماء فى التفسير بالرأي بين مانعين ومجيزين وبينت أدلة كل فريق ومناقشة فريق المجيزين للمانعين .

ى- خاتمة البحث وذكرت فيها خلاصة ونتائج هذه الرحلة مع هذا البحث .

فإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان وأسأل الله الإخلاص فى العمل والعفو عن الزلل إنه ولى ذلك وقادر عليه ,

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

التفسير والتأويل والفرق بينهما

التفسير فى اللغة : - هو الإيضاح والتبيين ، ومنه ولـــه تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ (١) أي بيـــان وتفصيـــلا ، وهو مأخـــوذ من الفســـر وهو الإبانـــة و الكشف قال فى القاموس " الفسر " الإبانة وكشـــف المغطـــى كالتفسير ، والفعل كضرب ونصر ... أ هـ (٢)

وقال فى لسان العرب ﴿ الفسر ﴾ البيـــان فســـر الشـــيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسراً ، وفسره أبانه ، والتفسير مثله ..... ثم قال الفسر كشف المغطـــى ، والتفســـير كشـــف المراد من اللفظ المشكل ... أهـــ (٣)

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة فـــى الكشـــف الحسى ، وفى الكشف عن المعانى المعقولة ، واستعماله فـــى الثانى أكثر استعماله فى الأول .

---

(١) سورة الفرقان آية : ٣٣

(٢) القاموس ٢/١١٠ .

(٣) لسان العرب ٦/٣٦١ .

التفسير في الاصطلاح :-

فقد عرفه العلماء تعريفات كثيرة لكنها متقاربة ونذكر أهمهما فيما يلى :

١- علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

٢- وعرفه بعضهم فقال " هو علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدلته وألفاظه ومعانيه المتعلقة الألفاظ والمتعلقة بالأحكام ".والمراد بكلمة نزوله : ما يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه .والمراد بكلمة سندها : ما يشمل كونه متواتراً أو آحاداً أو شاذاً والمراد بكلمة أدائه : ما يشتمل كل طرق الأداء كالمد والإدغام والمراد بكلمة ألفاظه ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازا أو مشتركاً أو مرادفاً أو صحيحاً أو معتلاً أو معرباً أو مبنياً .

والمراد بمعانيه المتعلقة بألفاظه ما يشبه الفصل والوصل والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه : ما هو من قبيل العموم والخصوص ، والأحكام والنسخ .

٣- عرفه بعضهم فقال " إنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولها وأحكامها الإفرادية وتركيبه ، ومعانيها التى تحمل عليها حال التركيب وغير ذلك لمعرفة النسخ وسبب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل وهذا تعريف وسط بين التعريفين ، ومن السهل رجوعه لى التعريف الأول ، لأن ما ذكرنا بالتفصيل ، يعتبر بياناً لمراد الله من كلامه بقدر البشرية في شيء من التفصيل . (١)

٤- وعرفه بعضهم فقال " علم نزول الآيات ، وشؤونها ، وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها و حرامها ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها.

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى ، وبيان لمراد (٢)

---

(١) مناهل العرفان ١/٢٧٠ : ٤٧٢ .

(١) التفسير والمفسرون ١/١٥ .

التأويل فى اللغة . [٣] مأخوذ من الأول وهو الرجوع ، قال فى القاموس " آل إليه أولا ومآلا : رجع ، وعنه ارتد ثم قال : وأول الكلام تأويلاً وتأوله دبره وقدره وفسره والتأويل عبارة عن الرؤيا [٤] وقال فى لسان العرب : الأول : الرجوع ، إلى الشيء يؤول أولاً ومآلا رجع ، وأول الشيء رجعه ، آلت عن الشيء ارتددت . وعلى هذا يكون التأويل مأخوذ من الإبانة وهى السياسة فكان المؤول يسوس الكلام ويضعه فى موضعه قال الزمخشرى في أساس البلاغة : " آل الرعية يؤولها يأله حسنه ، وهو حسن الإبانة ، وأتابها وهو موتال قومه مقتال عليهم أى سائس محتكم ... أ هـ [٥] .

التأويل فى الإصلاح :-

فإنه يختلف معناه فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير وعلى هذا النسبة بينهم التساوى يشيع هذا المعنى عند المتقدمين ومنه قول مجاهد : " إن العلماء يعلمون تأويله " يعنى القرآن " وقول بن جرير فى تفسيره القول فى تأويل قوله

---

(١) التفسير والمفسرون ١/١٥ : ١٦ بتصرف .

(٣) القاموس المحيط ٣٣١/٣ .

(٤)

تعالى كذا ... واختلفت أهـــل التـــأويل فـــى هـــذه الآيـــة ..."

وبعضهم يـــرى أن التفســـير غـــير التـــأويل بـــالعموم والخصوص اللفظى ويجعل التفسير أعم مطلقاً وكأنه يريد مـــن التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل ويريـــد مـــن التفسير بيان اللفظ مطلقاً أعم بأن يكون من المتبادر أو بغـــير المتبادر .

وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل ، فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيـــح أحـــد المحتمـــلات بدون قطع وهذا هو قول الماتريدى . أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية والتأويل بيان اللفظ عن الطريـــق عـــن طريـــق الدراية أو التفسير بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبـــارة والتأويل بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة قـــد اشـــتهر هذا عند المتأخرين كما نبه إليه العلامة الألوسى اذ قـــال بعـــد استعراضه الآراء فى هذا الموضوع ما نصبه: " كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للعرف اليوم إذ قد تعـــــورف مـــن المؤلفين من غير نكير أن التأويل معـــان قدســـية ، ومعـــارف ربانيه تهل من سحب الغيب على قلوب العارفين فالتفسير غـــير ذلـــك " أهـــ بتصريف فأنت ترى أنه جعل التأويل خاصاً بمـــا

كان مأخـــوذاً بالإشارة ، والتفســير بما كـــان مفهوماً مـن العبارة .(١) .

فضل التفسير والحاجة إليه

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحـــة عـن تجربه ولا سهله ميسره ولا رائعة مدهشة ، إلا عـــن طريـق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التى روعيـت فيـها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى على ما أحاط بـــه علـم خالقه الحكيم وبدهى أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوي مـــن نصـح ورشـد والإلمام بمبادئه من طريق تلك القوة الهائلـــة التـى يحميـها أسلوبه البارع المعجز وهذا لا يتحقق إلا عن طريـق الكشـف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن " وهو مـــا نسـميه بعلـم التفسير " خصوصاً فى هذه العصور الأخيرة التى فسدت فيـــها ملكة البيان العربى وضاعت فيها خصائص العروبة حتى مـــن سلائل العرب أنفسهم .

---

(١) مناهل العرفان ١/٤٧٢، ٤٧٣ .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ النـــاس ، وإعــزاز العالم .

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ لناس فى ترديد ألفـــاظ القــرآن ، وتوافــدوا عليــه بقراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التى نزل عليها وهنـــا نلمح السر فى تأخر المسلمين فى هذا الزمن فعلى الرغم وفــرة المصاحف فى أيديهم ووجود ملايين الحفـــاظ بيــن ظهرانيــهم وعلى رغم كثرة عددهم واتساع بلادهم فـــى حيــن أن ســلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان وما زال موضـــع إعجاب التاريخ والمؤرخين . (١)

---

(١) مناهل العرفان ١/٤٧٤ ـ ٤٧٥ بتصرف .

مراحل التفسير وأطواره

المرحلة الأولى :التفسير في عهد النبي ﷺ

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنا علينا بيانه ﴾ (٢)

فكان النبى ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلاً وكان عليه أن يبينه لأصحابه ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون ﴾ (٣) وكان الصحابة رضى الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه بزل بلغتهم وإن كانوا لا يفهمون دقائقه ، يقول بن خلدون فى مقدمته : " إن القرآن نزل بلغة العرب – على أساليب بلاغته فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه ؛ ولمكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون فى الفهم فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر " .

---

(٢) سورة القيامة الآيات من ١٧: ١٩

(٣). سورة النحل آية : ٤٤ .

أخرج أبو عبيده عن أنس بن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وفاكهة وأبا﴾ (١) فقال هذه الفاكهة عرفاه فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : " إن هذا هو التكلف يا عمر " (٢)

وأخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فىّ ، فقال أحدهما : أنا فطرتها يقول: " أنا ابتدأتها " (٣)

ولذا قال ابن قتيبة : " إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل إن بعضها يفضل فى ذلك عن بعض " (٤)

وكان الصحابة يعتمدون فى تفسيرهم لهذا العصر على :

أولاً : القرآن الكريم ، فما جاء مجملاً فى موضع جاء مبيناً فى موضع آخر تأتى الآية مطلقة أو عامة ثم ينزل ما يقيدها ويخصصها ، وهذا هو الذى يسمى بتفسير القرآن

---

(١) سورة عبس الآية : ٣١ .

(٢) الإتقان ١٢٣/٢ .

(٣) الاتقان فى علوم القرآن السيوطى ١١٣/٢ .

(٤) التفسير والمفسرون ٣٦/١ .

بالقرآن ، ولهذا أمثلة كثيرة ، فقصص القرآن جاء موجزاً فـــى بعض المواضع ومسهباً فى مواضع أخرى وقوله تعالى ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾. (٥) فسرة آية ﴿حرمـت عليكم الميته ﴾ (٦) وقوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصـــار ﴾ (٧) فسره آية ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ (٨)

ثانياً : النبى ﷺ : فهو المبين ، وكان الصحابة يرجعـون إليـــه إذا أشكل عليهم فهـــم آيه من الآيـــات عـــن ابـــن مسعود قال :لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين امنـــوا ولـــم يلبســـوا إيمانه بظلم ﴾ (٩) شق ذلك على الناس فقالوا : يارســـول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا مـــا قال العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (١٠) إنمـــا هـــو الشرك " كما كان الرسول ﷺ يبين لهم ما يشاء عنـــد الحاجـــة عن عقبة بن عامر قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول وهـــو

---

(٥) سورة المائدة آية ١ .

(٦) سورة المائدة آية : ٣ .

(٧) سورة الأنعام آية : ١٠٣ .

(٨) سورة القيامة آية : ٢٣

(٩) سورة الأنعام آية : ٨٢ .

(١٠) سورة لقمان آية : ١٣ .

على المنبر " ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قـــوة ﴾ [١] لا وإن القوة الرمى " . [٢]

وعن أنس قال : " قال رسول الله ﷺ : الكوثر أعطانيـــه ربى فى الجنة ".

وقد أفردت كتب السنة باباً للتفسير المأثور عن رســـول الله ﷺ ، وقال الله تعالى ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .[٣]

ومن القرآن ما لا يعلم تأويله إلا ببيـــان الرســـول ﷺ . كتفصيل وجوه أمره ونهيه ، ومقادير ما فرضه الله من أحكام ، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ " ألا وإنى أوتيـــت الكتـــاب ومثله معه ..." [٤]

---

(١) سورة الأنفال آية : ٦٠ .

(٢) أخرجه مسلم وغيره .

(٣) سورة النحل الآية : ٦٤ .

(٤) مباحث فى علوم القرآن ص ٣٣٤: ٣٣٦ .

المرحلة الثانية :-

التفسير في عهد الصحابة

وتسمى مرحلة الفهم والإجتهاد

فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى ، ولم يجدوا شيئاً فى ذلك عن رسول الله ﷺ " اجتهدوا فى الفهم ، فإنهم من خلص العرب ، يعرفون العربية ، ويحسنون فهمها ، ويعرفون وجوه البلاغة فيها " .

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم : الخلفاء الأربعة وابن مسعود ، وأبن عباس ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمره وجابر بن عبد الله ، وعمر بن العاص ، وعائشة ، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، وهنلك روايات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم فى مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور فتتفاوت درجتها من حيث السند صحة وضعفا .

لا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته ذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابى له حكم المرفوع إذا

كان يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأى فيه مجـــال . أما ما يكون للرأى فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ .

والموقوف على الصحابى من التفسير يوجـــب بعـض العلماء للأخذ به لأنهم أهل اللسان ، ولما شاهدوه من القرائـــن و الأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفـــهم الصحيـــح . قال الزركشى فى البرهان : " اعلم أن القرآن قسمان : قسم رد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، والأول : إما أن يرد عن النبـــى ﷺ أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين – فالأول يبحث فيه عـــن صحة الســـند والثانى ينظر فى تفســـيره الصحابى ، فـــإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك فى اعتمـــاده . أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه " (١)

وقال الحافظ بن كثير فى مقدمه تفسيره " وحينئذ إذا لـــم تجد التفسير لا فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلـــك إلـــى أقول الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شـــاهدوه مـــن القرائـــن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التـــام والعلـــم الصحيح والعمل الصالح – ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة

---

(١) الإتقان ١٨٣/٢

الأربعة ، والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين والمهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم " [٢] ولم يدرون شئ فى التفسير فى هذا العصر لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى وكان التفسير فرعاً من الحديث ، ولم يتخذ شكلاً منظماً - بل كانت هذه التفسيرات الروى منثورة لآيات متفرقة ، من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسورة كما لا تشمل القرآن كله . [٣]

تفاوت الصحابة فى فهم القرآن :

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا فى درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن ، بل تفاوتت مراتبهم وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم وهذا يرجع فى تفاوتهم فى القوة العقلية ، تفاوتهم فى معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات ، وأكثر من هذا ، أنهم كانوا لا يتساوون فى معرفة المعانى التى وضعت لها المفردات ، فمن مفردات القوات ما خفى معناه على بعض

---

(٢) ابن كثير ٣/١

(٣) مباحث فى علوم القرآن ص ٣٦٣ ــ ٣٣٧

الصحابة ، ولا خير فى هذا فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم ، ولم يدع أحداث كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها .

ومما يشهد لهذا الذى ذهبنا إليه ، ما أخرجه أبو عبيده في الفضائل عن أنس " أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع الى نفسه فقال إن هذا فهو التكلف يا عمر [١] " وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخذهم على تخوف ثم سأل عن التخوف فقال له رجل من هزيل : التخوف عندنا التنقص وما أخرجها أبو عبيدة من طريق مجاهد عن أبن عباس قال" كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان تخاصمان فى بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها . والآخر يقول أنا ابتدأتها "[٢]

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب معنى التخوف ، ويسأل عنها غيره ، وابن عباس هو ترجمان القرآن – لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره فكيف شأن غيرهما من الصحابة ولاشك أن كثيراً إنهم كانوا يكتنفون المعنى الإجمالى للآية فيكفيهم – مثلاً من يعلموا من قو له تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ أنه تعداد النعم التى أنعم الله بها عليهم ، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية ما دام واضحاً جلياً .[٣]

---

(١) الإتقان ٢/١١٣

(٢) الإتقان ٢/١١٣

(٣) أنظر ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر فى سؤاله عن معنى الأب فى سورة عما تفسيره لجزء عما ص ٢١

المرحلة الثالثة

التفسيرات في عهد التابعين

ابتداء هذه المرحلة :

تنتهى المرحلة الثانية للتفسير بانصرام عهد الصحابة وتبدأ المرحلة الثالثة للتفسير فى عهد التابعين الذين تتلمذوا على للصحابة فنقلوا غالب معلوماتهم عنهم .

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله ، أشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين تكلموا فى التفسير ، ووضحوا لمعاصريهم ما خفى معناه .

مصادر التفسير هذا العصر :-

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه على ما رواه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم ،

وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى .

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير ، قالوها بطريق الرآى والاجتهاد ولم يصل إلى علمهم رأى فيها عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة .

وقد قلنا فيما سبق : أن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن وإنما فسره ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد هذا الغموض على الأرجح ــ كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة ويحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض ما جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن ، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث .

مدارس التفسير في عهد التابعين :-

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم في حياة رسول الله ﷺ ، وفى عهد الخلفاء من بعده ، ولم يستقروا جميعاً فى بلد واحد من بلاد المسلمين ، بل بعد الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى ، موزعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام ، وكان منهم الولاة ، ومنهم الوزراء ، ومنهم القضاة ، ومنهم المعلمون ، ومنهم غير ذلك .

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التى رحلوا إليها ، ما وعوه من العلم ، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ فجلس إليهم كثيراً من التابعين يأخذون العلم عنهم وينقلونه لمن بعدهم ، قامت فى هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية ، أساتذتها الصحابة ، وتلاميذها التابعون .

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير ، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة ، فقامت مدرسة التفسير بمكة ، وأخرى بالمدينة وثالثة بالعراق ، وهذه المدارس الثلاث ، هى أشهر مدارس التفسير فى الأمصار فى هذا العصر .

قال ابن تميمة وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة . فيهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس بطاوس ، وابن الشعثاء ، وسعيد بن جبير ، وأمثالهم . وكذلك هل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد ابن أسلم ، الذى أخذه عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الحمن ، وعبد الله بن وهب أ هـ (١)

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المداس من الصحابة بإيجاز ، فأقول وبالله التوفيق

(أ)مدرسة التفسير بمكة

قيامها على ابن عباس :

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . فكانت يجلس لأصحابه من التابعين ، يفسر لهم كتاب الله تعالى ، ويوضح لهم ما أشكل عن معانية ، وكان

(١) مقدمة بن تيمية فى أصول التفسير ص ١٥

تلاميذه يعون عنه ما يقول ، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه .

مدرسة التفسير بالعراق

قيامها على ابن مسعود

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير ، غير عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة ، نظراً لشهرته فى التفسير وكثرة المروى عنه فى ذلك ، ولأن عمر رضى الله عنه لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة ، سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، فكونه معلم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر ، جعل الكوفيين يجلسون إليه ، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة .

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأى . وهذه ظاهرة نجدها بكثرة فى مسائل الخلاف ، ويقول العلماء : بن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال ، فى توارثها عنه علماء العراق ، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه

الطريقة فى مدرسة التفسير ، فيكثر تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد ، واستنباط مسائل الخلاف الشرعية ، نتيجة من نتائج أعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسنة .

أشهر رجالها :

وقد عرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين ، أشتهر من بينهم علقمة بن قيس ، والأسود بن زيد ، ومرة الهمدانى وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى . (١)

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شيء من الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فنقل عن الإمام أحمد رضى الله عنه روايتان فى ذلك : رواية بالقبول ، ورواية بعدم القبول ، وذهب بعض العلماء إلى أنه يؤخذ بتفسير التابعين وأختاره ابن عقيل ، وحكى عن

---

(١) التفسير والمفسرون /١١٨.

شعبة . واستدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه :بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى : إنه محمول على سماعه من النبى ﷺ وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن ، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً ، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة . نقل عن أبى حنيفة أنه قال :ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعين فى التفسير لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة ، فمجاهد مثلاً يقول : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث وتوضأت من فاتحته إلى خاتمته ، أو وقفه عند كل آيه منه وأسأله عنها . وقتادة يقول: ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذى تميل إليه النفس : هو أن قـــول التـــابعين فـــى التفسير يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه ، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة ، فإن ارتبنا فيه ، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب ، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه ، أمـــا إذا أجتمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تميمة : قال شعبة بن الحجـــاج وغـــيره أقـــوال التابعين ليست حجة فى التفسير ؟ أى لا تكـــون حجـــة علـــى غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أمـــا إذا أجمعـــوا علـــى الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكـــون قـــول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع فى ذلـــك إلى لغة القرآن ، أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقـــوال الصحابة فى ذلك . (١)

---

(١) مقدمة بن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ ، ٢٩ ـ ب فواتح الرحموت ١٨٨/٢ ،الاتقان ١٧٩/٢ .

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :-

أولاً : دخل فى التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات ، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية ، كأخبار بدء الخليقة ، وأسرار الوجوه ، وبدء الكائنات وكثير من القصص . وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل لما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية ، وتساهل التابعون فزجوا فى التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر ونقد . وأكثر من روى عنه فى ذلك من مسلمى أهل الكتاب : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج . ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات فى التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم .(٢)

ثانياً :- ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقى والرواية ، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن فى

---

(٢) فجر الإسلام ص ٢٥٢ ، ومنهج الفرقان ٢٠/٢

عصر النبى ﷺ وأصحابه ، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليها طابع الاختصاص ، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم ، فالمكيون عن ابن عباس ، والمدنيون عن أبى ، والعراقيون عن ابن مسعود ... وهكذا .

ثالثاً : ظهرت فى هذا العصر نواه الخلاف المذهبى فظهرت بعض تفسيرات تحمل فى طياتها هذه المذاهب ، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسى ينسب إلى الخوض فى الماء القضاء والقدر بينهم بأنه قدر ، ولا شك أن هذا أثر على تفسيره ، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه .

رابعاً : كثرة الخلاف بين التابعين فى التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وإن كان اختلافا قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخرى المفسرين . (١)

---

(١) التفسير والمفسرون ١/١٢٨ : ١٣١ .

المرحلة الرابعة :-

عصر التدوين فى التفسير

(أ) التدوين فى أواخر بنى أمية وأوائل عهد العباسيين ، حظى الحديث بالنصيب الأول فى ذلك ، وشمل تدوين الحديث أبواباً متنوعة ، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب ، فلم يفرد ، تأليف خاص يفسر القرآن صورة صورة ، وآية آية ، من بدئه إلى منتهاه .

واشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبى ﷺ أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ، مع عنايتهم بجمع الحديث . وفى مقدمه هؤلاء يزيد بن هارون السلمى ، شعبة بن الحجاج ، و وكيع بن الجراح ، وسفيان بن عيينة ، وروح بن عباده البصرى ، وعبد الرازق بن همام ، وآدم بن أبى إياس عبد بن حميد .ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شئ ، وإنما روى ما نقل مسنداً إليهم فى كتب التفسير بالمأثور .

جاء بعد هؤلاء من أفراد التفسير بالتأليف وجعله علماً قائماً بنفسه منفصلاً عن الحديث - ففسرا القرآن حسب ترتيب

المصحف . وذلك كأبن صاحبه ، وابن جرير الطـبرى ، وأبـو الشيخ بن حباب ، والحاكم وأبو بكر بن مردوية .

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلـى رسـول الله ﷺ ، وإلى الصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين مع الترجيح أحيانـاً فيما يروى من آراء واستنباط بعض الأحكام . والإعراب عنـد الحاجة ، كما فعل ابن جرير الطبري ثم جاء على إثـر هـؤلاء جماعة من المفسرين لم يتجاوزوا حدود التفسـير بالمـأثور ، ولكنهم اختصـروا الأسـانيد وجمعـوا شـتات الأقـوال دون أن ينسبوها إلى قائلها وبهذا التبس الأمر ، ولم يتميز الصحيـح من السقيم .إتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشبعت فروعـها ، وكثر اختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبى واختلفت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية ، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هـواء الجـو عبارة ، وأصبح المفسرون يعتمدون فى تفسيرهم على الفـهم الشخصى ويتجـهون اتجاهـات متعـددة ، وتحكمـت فيـهم الاصطلاحات العلمية .

والعقائد المذهبية ، والثقافية الفلسفية ، واهتم كل واحـد من المفسر يحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى ، وصـلحب

العلوم العقلية يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة فخر الدين الرازى ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية الجصّاص والقرطبى ، وصاحب التاريخ يعنى بالقصص والأخبار الثعلبى والخازن ، وصاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرمانى والجبائى ، والقاضى عبد الجبار والزمخشرى من المعتزلة وملامحس الكاش من الأمامية الأثنى عشرية . وصاحب التصوف يستخرج المعانى الإشارية كابن عربى .

هذا مع علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل فى طياتها الغث والثمين ، والنافع والضار والصالح والفاسد وحمل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله ؛ انتصاراً لمذهبه ورداً على خصومه . وفقد التفسير وظيفته الأساسية فى الهداية والإشارة ومعرفة أحكام الدين .

وبذلك طغى التفسير بالرأى على التفسير بالأثر وتتدرج التفسير فى العصور المتتابعة على هذا النمط ، بنقل المتأخر عن المتقدم مع الاختصار تارة ، والتعليف أخرى ، حتى طهرت أنماط جديده فى التفسير المعاصر ، حيث عنى بعض المفسرين بحاجات العصر ، وتناولوا فى تفسيرهم الكشف عما تضمنه القرآن الكريم من أسس الحياة الاجتماعية ، مبادئ

التشريع ، ونظريات العلوم ، كتفسير الجواهر وتفسير المنـــار ، والظلال .

التفسير الموضوعى :-

وبإزاء التفسير العام فى عصور التدوين كان التفســـير الموضوعى للمباحث الخاصة يسير معه جنباً لجنب ، فألف ابن القيم كتابه البيان فى أقسام القرآن ، وألف أبوعبيدة كتاباً عـــن مُجاز القرآن وألف الراغب الأصفهاني فى مفـــردات القـــرآن ، وألف أبو جعفر فى الناسخ والمنسوخ ، وألـــف أبـــو الحســـن الواحـــدي فى أسباب النزول ، وألف الجصـــاص فـــى أحكـــام القرآن ، وتتابعت الأبحـــاث القرآنية فى العصر الحديـــث ولا زوا واحد منها من تفـــسير لبعض آيات القرآن بجانب مـــن الجوانب .[١]

---

(١) التفسير والمفسرون ١/١٤٠: ١٥٠ باختصار .

ومباحث فى علوم القرآن ص ٣٤٠ : ٣٤٢ .

طبقات المفسرين

على ضوء ما سبق نستطيع أن نقسم طبقات المفسرين على النحو التالي:-

١- المفسرون من الصحابة :- اشتهر منهم الخلفاء الأربعة ، وأبن مسعود ، وأبن عباس ، وأبى بن كعب وغيرهم . وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربع على بن أبى طالب ، والرواي عن الثلاثة نزر جداً ، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم .

٢- المفسرون من التابعين : قال أبن تميمة : " أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء ابن أبى رباح وعكرمة مولى بن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وطاوس وغيرهم - وفى الكوفة أصحاب أبن مسعود - وفى المدينة زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس

٣- ثم بعد هذه الطبقة : طبقة الذين صنف كثير منهم كتب التفاسير التى تجمع أقوال الصحابة والتابعين ، كسفيان

ابن عيينة ، و وكيع بن الجراح ، وشيعة أبن الحجاج وغيرهم .

٤- ثم بعد هؤلاء طبقات أخرى :- منها على بن أبى طلحة ، وبن جرير الطبرى ، وأبن أبى حاتم ، وأبن ماجة وغيرهم كلها مسندة إلى الصحابة والتابعين واتباعهم ، وليس فيها وذلك إلا أبن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك .

٥- ثم انتصبت طبقه بعدهم : صنفت كتباً مشحونة بالفوائد الغوية ، ووجوه الإعراب ، وما أثر فى القراءات بروايات محذوفة بأسانيد ، وقد يضيف بعضهم شيئاً من رأيه ، ومثل أبى إسحاق حجاج ، وأبى علق الفارسى ، وأبى بكر النقاش ، وأبى جعفر النحاس

٦- ثم ألف التفسير طائفة من المتأخرين : اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال بتراء : فدخل من هنا الدخيل ، التمس الصحيح بالعليل .

٧- ثم صار كل من سنح له بقول يورده : ومن خطر بباله شئ يعتمده . ثم ينقل ذلك عنه من يجئ بعده ظاناً أن له

أصلاً غير ملتفت إلى ما ورد عن السلف الصالح ومنهم القدوة في هذا الباب .

٩- صنف بعد ذلك قوم : برعوا في شئ من العلوم - منهم من ملأ كتابة بما غلب على طبعة من الفن ، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه ، كان القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير ، مع أن فيه تبيان كل شئ .

فالنحوي نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير أوجهه المحتملة فيه ، وإن كانت بعيده ، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلفياته كأبي حيان في البحر والنهر ، وهكذا سائر الفنون .

٩- ثم جاء عصر النهضة الحديثة فأنتجت كثير من المفسرين منحنى جديداً ، في العناية بطلاوة الأسلوب ، وحسن العبارة ، الاهتمام بالنواحي الاجتماعية ، والأفكار المعاصرة ، والمذاهب الحديثة ، فكان التفسير الأدبي الإجتماعي ، ومن هؤلاء : محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا ، ومحمد مصطفى المراغي ، وسيد قطب وغيرهم . (١)

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦ .

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى

مما سبق يتبن لن أن التفسير قسمان التفسير المأثور والتفسير بالرأى ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر نبذة موجزه عن هذين القسمين بحيث تتضمن تعريف كل منها وسبب اختلاف المفسرين فيهما وبيان قيمة كل منهما وذلك تحسباً للفائدة فنقول وبالله التوفيق .

١- التفسير بالمأثور :- هو الذى يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذكرت سابقاً وهى تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله ، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها ، ولا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح .

قال ابن تميمة : يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن ، كما بين لأصحابه معانى القرآن ، كما بين لهم

ألفاظه ، فقوله تعالى ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ يتناول هذا وهذا ، وقد قال عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله أبن مسعود وغيرها ، أنهم إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمال ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمال جميعاً ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، قال أنس : كان الرجل إذا قرء البقرة وآل عمران تجدّ فينا رواه أحمد فى سنده ، وأقام أبن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين أخرجه مالك فى الموطأ ، وذلك أن الله تعالى قال ﴿ كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا آياته ﴾ (١) وقال ﴿ أفلا يتدبروا القرآن ﴾ (٢) تدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم كالطب والحساب ولا تشرحوه . فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ؟(٣)

ومن التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة ، عن قال : عرضت المصحف على أبن عباس ثلاث عرضات من

---

(١) الاتقان ٢/١٧٦

(٢) سورة محمد آية : ٢٤ .

(٣) سورة ص الآية ٢٩

فاتحته إلى خاتمته ، أستوقفه عند كل آية أسأله عنها "الاختلاف فيه

التفسير بالمأثور بدور على راوية ما نقل عن صدور هذه الأمه ، وكان الاختلاف بينهم قيلاً جدا بالنسبة إلى من بعدهم ، وأكثره لا يعدوا أن يكون خلافاً فى التعبير مع اتحاد المعنى ، أو مكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل قال أبن تيمية : " والخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لاختلاف قضاء ، وذلك نوعان :

أحدهما : أن يعبروا أحد منهم على المراد بعبارة غير عبارة صحابه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى والآخر مع إتحاد المسمى ، كتفسيرهم ﴿ الصراط المستقيم ﴾ قال بعضهم : القرآن أى أتباعه ، وقال بعضهم : الإسلام ، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو إتباع القرآن ، ولكن كلاً منهما منه على وصف غير الوصف الآخر

الثانى : أن يذكر كل منهما من الأسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ،

فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ممـــا وقـــع فيـــه بعـــض المفسرين فى نقل إسرائيليات عن أهل الكتاب ، كأختلافهم فـــى أصحاب أسماء الكهـــف ، ولـــون كلبهم وعددهم ، وقد قال الله تعالى ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهـــم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ﴾ (١)

واختلافـــهم فى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفـــى اســـم الغلام الذى قتله الخضر ، وفى أسماء الطيور التى أحياهـــا الله لإبراهيم ، وفى نوع شجرة عصا موسى ، ونحو ذلك

فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منه منقـــولاً نقلاً صحيحاً عن النبى ﷺ قُبِل ، وإلا توقفنا عنه ، وإن كـــانت النفس تسكن إلى ما نقل عن الصحابة ، لأن نقلهم عـــن اهـــل الكتاب أقل من نقل التابعين . وجاء فى الحديث " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم " . (٢)

---

(١) سورة الكهف آية . ٢٢ .

(٢) مباحث فى علوم القرآن ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ بتصرف قليل .

قيمة التفسير المأثور

التفسير بالمأثور هو الذى يجب إتباعه والأخذ بـــه لأنـــه طريق المعرفة الصحيحة ، وهو آمن سبيل للحفظ مـــن الزلـــل والزيغ فى كتاب الله . وقد روى عن أبن عبـــاس أنـــه قـــال " التفسير على أربعة أوجه تعرفه العرب من كلامـــها ، وتفســـير يعذر أحد بجهالته ،.وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله " والذى تعرفه العرب هو الذى يرجع فيه إلـــى لســـانهم ببيان اللغة .

والذى لا يعذر أحد بجهله : هو ما يتبادر فهم معناه فـــى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيـد ولا لبس فيها ، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعـالى ﴿ فأعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (١) وإن لم يعلم أن هـــذه العبـــارة وردت بطريق النفى والاستثناء فهى داله على الحصر .

وأما ما لا يعلمه إلا الله ، فهو المغيبات ، كحقيقة ، قيام الساعة ، وحقيقة الروح .

---

(١) سورة محمد آية : ١٩

وأما ما يعلمه العلماء : فهو الذى يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى من بيان مجمل ، أو تخصيص عام ، أو نحو ذلك . (٢)

التفسير بالرأى

الجائز منه وغير الجائز :-

المراد بالرأى هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موفقاً أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة استناد الرأى إليها فى التفسير نقلها السيوطى فى الإتقان عن الزركشي فقال ما وملخصه : للفاطر فى القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة :-

الأولى :- النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرّر عن الضعف والموضوع .

الثانية :-الأخذ بقول الصحابى ، فقد قيل إنه فى حكم المرفوع سلفاً وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

---

(٢) مباحث فى علوم القرآن للقطان ص ٣٥٠ .

الثالثة :- الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات وما يدل عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة :- الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع ، وهذا النوع الرابع هو الذى دعا به النبى ﷺ لأبن عباس فى قوله : " اللهم فقه فى الدين علمه التأويل "(١)

فمن فسر القرآن برأيه أى باجتهاده ملتزماً الوقوف عن هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معانى فى كتاب الله من تفسير جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره ساقطاً مرذولاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم .

فالتفسير بالرأى الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه ، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه .

---

(١) الاتقان للسيوطى ٢٢٨ ـ ٢٢٩ . باختصار الحلبى

أما الأمور التى يجب البعد عنها فى التفسير بالرأى فمن أهمها التهجم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة والشريعة ومنها حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة ومنها الخوض فيما أستأثر الله بعلمه ومنها القطع بأن مراد الله كذا من عير دليل ومنها السير مع الهوى والاستحسان .

ويمكن تلخيص هذه الأمور الخمسة فى كلمتين ، هما الجهالة والضلالة

وينبغى أن يعرف أن فى القرآن علوماً تتنوع إلى ثلاثة:-

الأولى :- علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه بل استأثر به وحده كمعرفة حقيقية لذاته وصفاته وعيوبه التى لا يعلمها إلا هو . وهذا النوع لا يجوز الكلام فيه لأحد إجماعاً .

الثانى :- ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ واختص به . وهذا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ ولمن أذن له الرسول . قيل ومنه أوائل السور .

الثالث : - العلوم التى علمها الله لنبيه مما أمر بتبليغه وهذا النوع قسمان " قسم " لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق

السمع كالكلام فى الناسخ والمنسوخ والقراءات ، وقصص الأمم الماضية ، وأسباب النزول ، وأخبار الحشر والنشر والمعاد .

وقسم يعرف بطريق النظر والاستدلال ، وهذا منه المختلف فى جوازه وهو ما يتعلق بآيات الأحكام والمواعظ والأمثال والحكم ونحوها لمن له أهليه الاجتهاد .(١)

وتتميماً للفائدة لابد من ذكر ما يجب أن يتسلم به المفسر من علوم ومعارف ونجعلها فيما يلى :-

أولها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة فيكون ملماً بعلوم اللغة والنحو ، والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول ، والقصص والناسخ والمنسوخ والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة ، والتقوى والصلاح قال الله تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ (٢)

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ١/ ٥١٧ ـ ٥١٩ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

ثانيهما الأساليب فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم فى هذه الأساليب الرفيعة ، ذلك يحصل بممارسة الكلام بـالتبليغ ومزاولته مع التنقيص لنكته ومحاسنه والوقوف علـى مـراد المتكلم منه .

ثالثهما علم أحوال البشر فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعلـه آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره ، وبين به كثيراً مـن أحوال الخلق وطبائعه وسفنه الألهية فى البشر وقـص علينـا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها .

خامساً : العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه وما كانوا عليـه من علم وعمل وتصرف فى الشئون الدنيوية والأخروية . (٣)

---

(٣) مناهل العرفان ١/ ٥١٩-٥٢٢ باختصار .

اختلاف العلماء في منع التفسير بالرأى وجوازه

يختلف العلماء فى التفسير بالرأى بين مجير ومانع والتحقيق ما قدمناه بين يديك من الجواز وشروطه . وأن ذلك فى غير أدنى مراتب التفسير ، أما هذا الأدنى فهو جائز من غير اعتبار ملك الشروط ، لأن الله يسره حتى للعامة ونسوق هنا أدلة المانعين والمجيزين .

أدلة المانعين والمجيزين .

أدلة المانعين :- يستدل المانعون بأدلة :-

الأول أن بغير علم منهى عنه . فالتفسير بالرأى منهى عنه لكن أجاب المجيزون لأن القائل بالظن فيما لا يجوز عليه نص قاطع ، ولا دليل عقلى ، إنما يستدل إلى علم من الله أى إلى دليل قطعى منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن . كقوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (١)

وكقوله ﷺ ما معناه " من اجتهد وأخطئ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران "

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

الدليل الثانى :- ما يرويه أبو داود عن جندب قال : قال النبى ﷺ " من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ " وما يرويه عن أبن عباس عن النبى ﷺ قال : إتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ومن قال فى القرآن برأيه فأصاب قد أخطأ " .

وأجيب عن هذين الحدثين بأجوبه ثلاث :-

أولها أنهما محمولان على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن ومتشابهة مما لا يعلم إلا من طريق النقل عن النبى ﷺ وأصحابه .

ثانيهما : أنهما محمولان على من قال فى القرآن قولاً وهو يعلم أن الحق خلافه ، كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هواهم ليحتجوا به على صحة آرائهم .

ثانياً : أنهما محمولان على قول من يأخذ بظاهر الكلام . من غير أن يستند إلى نقل أو يكلف نفسه البحث عن مهمات القرآن وما فيه حذف وإضمار وتقديم وتأخير ونحو ذلك ... فالنقل لابد منه لكل مفسر ، كيلا يقع فى الخطأ . أما التوسع

فى الفهم وإستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد ذلك لأن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كاف ولا سديد هذه احتمالات فى الحديثين ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال أسقط به الاستدلال ويجاب عن حديث جندب زيادة على سابقه بأنه حديث لم تثبت صحته .

الدليل الثالث : ما ورد عن الصحابة والتابعين من أنهم كانوا يتحرجُّون عن القول فى القرآن بآرائهم . من ذلك ماروى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال " أى سماء تظلني " ؟ ،

أدلة المجيزين للتفسير بالرأى

استدلال المجيزون بالرأى باستدلالات عديدة أيضاً

أولها : أن الله تعالى يقول : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (١)

ويقول ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ (٢)

---

(١) سورة محمد آية ٢٤ .

(٢) سورة ص الآية ٢٩

ثانياً :- أن الرسول ﷺ قال فى دعائه لابن عباس : " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التنزيل لما كان هناك فائدة لتخصيصه . فدل على أن التأويل خلاف النقل . إذن فهو التفسير بالاجتهاد والرأى .

ثالثاً : لو كان التفسير بالرأى غير جائز لتعطل كثير من الأحكام واللازم باطل (٣)

---

(٣) مناهل العرفان ١/٥١٧ ـ ٢٢٧ باختصار .

خاتمة البحث

وأختم هذا البحث ببيان المنهج الذى يجب على المفسر أن يسير عليه عند تفسيره لكتاب الله عز وجل فأقول وبالله التوفيق .

قال صاحب منا هل العرفان ما نصب بتصرف قليل " وخلاصة ما مضى أنه يأخذ حذره ، وأن تذرع بكل العلوم التى نوهنا بها ليكون قد أصاب المراد أو كاد . ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد بإتباع ما يأتى :-

أولاً : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجدك طلبه من السنه لأنها شارحه للقرآن ، وإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه ، وأسباب نزوله ، شاهدوه حيث نزل ، فوق ما امتازوا به من علم وعمل .

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى فى الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة جب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتى: